الأنوار

الجمعة في 18 آذار، 2011

نظرة تفاؤلية

هيفاء حرب

منذ صغري تستهويني المطالعة ويستهويني التنقل بين رفوف المكتبات باحثة عن الاصدارات العربية والأجنبية الجديدة. فأنا لستُ بكاتبة أو ناقدة، بل هاوية تعشق الاطلاع على كل ما يتعلق بالعلوم والمعارف هرباً من المشاحنات السياسية والانخراط في «صبيحيات» و«عشاوات» تنتهي معظمها بصداع في الرأس، جراء الجدل العقيم في الشؤون السياسية أو آخر المظاهر الاجتماعية البراقة.

منذ أسبوع تقريباً، وبينما كنتُ كعادتي أتفقد جديد المؤلفات في الأسواق، استوقفني عنوان بشدة. نظرتُ الى غلاف الكتاب لأقرأ العنوان مجدداً، فابتسمتُ لأنه استفز شعوراً عميقاً في داخلي... لقد استفزني كامرأة. اشتريتُ الكتاب وذهبتُ إلى المنزل وكلي شغف لأقرأه وفي مخيلتي شريط من الصور عمّا قد يحتويه من مواضيع تتعلق بتحرير المرأة ومساواتها مع الرجل، الخ... فتحتُ الكتاب الذي يحمل عنوان «امرأة من المستقبل...» للكاتبة هيفاء العرب، وأذكر أنني لم أفارق غرفة الجلوس حتى انهيت آخر صفحة منه، وأذكر أيضاً كم علق زوجي يومها على عادتي السيئة تلك.

فإلى زوجي وإلى كل من لم يطلع على «امرأة من المستقبل...»، أدعوهم إلى ذلك لأنه كتاب يفوق مضمونه العميق وأسلوبه الشيّق وصوره الناطقة كل التوقعات والتصورات... فالكتاب رغم عنوانه الأنثوي ورغم أنّ كاتبته امرأة، إلا أنه يحلّل النفس البشرية وخاصة الجانب الذكوري منها ويُشرحُها... أهنئ الكاتبة على جرأتها وفطنتها وعمق معرفتها التي جعلتها تفهم فكر الرجل، وتصوّر ما يدور في خلده بدقة متناهية قد تفوق دقة وصف الرجل أحياناً... فأجمل ما في الكتاب أنّ الكاتبة شوقتني إلى التعرّف إلى علوم الايزوتيريك، التي يبدو أنها نجحت فعلاً في تقديم ما تعلمته واختبرته من هذه العلوم بتصويرها الواقعي للحب الأصيل في المستقبل بأسلوب يحاكي وجدان القارئ من دون استئذان. فقد أخرجت، كما تقول في مقدمة كتابها «مسألة تحقيق التوازن بين الفكر والعاطفة من النطاق الجدلي إلى النطاق العملي، حين أوضح الايزوتيريك أنّ المرأة هي كمال لاواع يبحث عن تفعيله في الرجل؛ وأنّ الرجل هو كمال لاواع يبحث عن تفعيله في المرأة... فلا المرأة قادرة على تفعيل وعيها من دون الرجل، ولا الرجل كذلك الأمر قادر على تحقيق وعيه من دون المرأة».

نعم، فلما قرأت كتاباً يتحدث في الحب وعن الحب خارج أطر العاديات أو الاباحيات احياناً، أو حتى خارج أطر المراهقة والعذاب والانتقام... فهذا الكتاب يبعث التفاؤل في النفس لأنه لا يطالب بتحرير المرأة، ولا بانتزاع مكانتها في المجتمع، لأنّ من امتلك الوعي «فرَضه» على الآخر كما تفرض الشعوب حريتها وتنتزعها من براثن الاضطهاد والديكتاتورية. كذلك الامر يفرض المرء الواعي، وبخاصة المرأة الواعية، مكانتها وشخصيتها واحترامها وحتى مساواتها من دون مفاضلة نفسها على الرجل. فبطلة الرواية أنثى تتميز بشخصية تعرف ما تريد، واعية لأمرها تتمتع بذكاء حاد ووضوح داخلي جعلاها تستدرك هدفها ودورها في الحياة عامة وفي الحياة المشتركة خاصة. وهذا ما أضفى على شخصيتها سحراً وجاذبية وأنوثة جذبت به بطل الرواية الذي كان يعاني من الوحدة رغم مكانته الاجتماعية والاقتصادية، ورغم مستواه العلمي المتفوق وعلاقاته الكبيرة التي لا تحصى. فتفاعل الكتاب الكشف كيف يتنامى الحب ويتطور بين المرأة والرجل عبر الشراكة المشاعرية والفكرية والجسدية الواعية، وعبر تحمل مسؤولية كل منهما في تخطي تقلبات النفس البشرية لانجاح الحب وتعبئة النقصان فيهما....

لن أغوص في تفاصيل الرواية كي يتمتع كل من لم يطلع عليها كما استلذذت بقراءتها، ولا أستغرب إن رأيت قريباً فصول هذه الرواية المشوقة مسلسلاً يُعرض على شاشات التلفزة.